



الحج، رموز وحكم

آية الله عبدالله جوادي آملی

لابدّ لكلّ إنسان من دين إلهي، ولا دين كذلك سوى الإسلام ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾^(١)، كما لا يُقبل دين عداه، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾^(٢)، فالإسلام هو الدين الوحيد الجامع النازل من جانب الحقّ تعالى، والمشمول على تمام الكمالات الإنسانيّة، والمهيمن على الأديان الباطلة كافة، وهو الديانة الفريدة القابلة للإجراء والتطبيق لتكون مورداً لاستفادة الإنسان.

وبناءً عليه، لابد لهذا الدين أن يحوي برامج وآليات يمكن توظيفها والاستفادة منها عبر التاريخ، وتظهر وتنجلي في مناخ تعالي الإنسانيّة انجلاءً كاملاً وتاماً.

الشمولية والدوام من أكبر أوصاف الإسلام وأهمّها، أي إنّهُ يستوعب في

(١) آل عمران : ١٩ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .



داخله أفراد الإنسان كافة من السود والبيض والحمر وسائر الأعراق و... كما يستوعب امتداد الزمان، في ماضيه ومستقبله، إلى يوم القيامة.

وللإسلام، بوصفه أمراً إلهياً غالباً على الزمان والحركة والمادة مصوناً من الزوال والاندثار، علّة تامّة مثله في ذلك مثل سائر الممكنات، وهذه العلّة التامّة مكوّنة من علّتين إحداهما العلّة الفاعلة والأخرى العلّة القابلة، فالعلّة القابلة للإسلام هي الإنسان نفسه، والإنسان إنسان لا يتغيّر ولا يتبدّل بما جبل عليه من الفطرة الخاصّة والطينة المخصوصة ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾^١. وأمّا العلّة الفاعلة له فهي الله الذي لا تناله يد التغيرات ولا تحظى بكرامته شبك التحولات، فإنّ ذاته منبع الحياة والنور والعلم والقدرة، ولا سبيل فيها أبداً للموت والظلمة والجهل والاعتلال، فهي الذات العليمة - إذن - بمصالح الإنسان ومفاسده، والأقدر على تعليمه وهدايته إلى المدارج الرفيعة وتحذيره من السقوط في المهوي السحيقة، وتبيين درجاتها والإعلام بدركاتها.



على هذا الأساس، فإنَّ سرَّ عالميَّة الإسلام يكمن في:
أولاً: إنَّ نزوله كان لتفتيح براعم الفطرة الإنسانيَّة، تلك الفطرة التي لا
ترتمن لأرض خاصَّة ولا لتاريخ معيَّن، كما لا مسير زمنيَّ لها، بل لا تنالها
التأثيرات العرقيَّة والقوميَّة ولا الظواهر الجغرافيَّة، ومن هنا تمثل البنية التحتيَّة
الراسخة للتربية، والأساس المحكم للإرشاد والتعليم.
ثانياً: إنَّ معلِّم الإنسان ومربيَّ البشريَّة هو الإله الذي لا رخصة للجهل
في الولوج إلى حريم علمه المطلق اللامتناهي، ولا فسحة للسهو والنسيان إلى
حرم أمن حضوره وشهوده الدائم. من هنا كان الدين المرضيَّ عنده هو
الأساس الثابت والبناء الدائم الذي لا يعرف الزوال في هداية المجتمعات
الإنسانيَّة جمعاء.

والنتيجة المستخلصة أنَّه لا مجال لتوهم التغيير في الإسلام، لا من ناحية
الفاعل ولا من ناحية القابل، وهو ما تشهد له الآية الكريمة: ﴿شرع لكم من
الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى
وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه﴾^١.

أمَّا اختلاف الشرائع والمناسك والمناهج فيما تحدَّث الله تعالى عنه في قوله
سبحانه: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾^٢، فإنَّما يرجع إلى التخصيص لا
إلى النسخ، بمعنى أنَّ الظروف الخاصَّة التي تعرض على المجتمع الإنساني
تستدعي حكماً فرعياً وقانوناً جزئياً محدوداً يتأطرَّ في حدود تلك الظروف
نفسها، ومن ثمَّ فانتهاه أحد تلك الظروف وحصول تغيير في الأوضاع يفضي

(١) الشورى: ١٣.

(٢) المائدة: ٤٨.



تلقائياً إلى انتهاء عمر هذا القانون أو الحكم.

إنَّ الحجَّ - كما سنوضحه فيما بعد وبوصفه أحد أهمّ مظاهر الإسلام - مظهر تام للمبادئ المشار إليهما، عنيت: الشمولية والدوام.

مكانة الحجّ في الإسلام

للإسلام مبادئ وأركان، ومن أركانه الحجّ، كما قال الإمام الباقر عليه السلام: «بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والولاية»^١. وعليه، فمن لا يقيم الحجّ عمداً، يكون قد ترك ركناً من أركان دينه الإلهي، ومن ثمّ يؤدّي ذلك إلى زوال الإسلام الكامل، من هنا عبّر الله تعالى عن الترك العمدي للحجّ بالكفر حين قال: ﴿ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين﴾^٢.

وحيث كان الإسلام ديناً عالمياً، يعلن دائماً عن مبدئيه غير الفانيين أي «الشموليّة» و«الدوام»، لذا كان لابد لبرامجه أن تكون عالميّة أيضاً، وتبدو معلماً حياً ومثالاً نابضاً بالشمولية والدوام.

إنّ الحجّ أحد أبرز مظاهر البرامج الإسلاميّة العالميّة، من هنا يمكن اعتبار دوامه وشموليّته شاهداً ناطقاً على دوام هذا الدين الإلهي وشموليّته، ولكي نبيّن عالمية الحجّ، وأنّه عبادة دينيّة تتمتع بالدوام والشموليّة، نشير إلى بعض الشواهد القرآنية على ذلك:

١ - الحجّ هو قصد الكعبة وزيارتها، وإنجاز مناسك خاصّة، والكعبة أوّل بيت وضع لعامة الناس، وهي المركز الأوّل الذي يجذب إليه العابدين: ﴿إنّ

(١) الكافي ٢: ١٨.

(٢) آل عمران: ٩٧.



أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً^١.

إن التعبير عن بناء الكعبة بـ «بكة» التي تعني الازدحام يدل على أن الكعبة كانت محوراً عالمياً يرجع إليه من مختلف نواحي العالم عبر الزمن، وأنه على إثر تعاظم حجم الوافدين إليه أطلق على هذا المكان «بكة»^٢.

٢ - تؤمن الكعبة الهداية للناس أجمعين، قال سبحانه: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾ وبناء عليه لا تختص الكعبة بأي فئة أو قومية أو عرق، ومن هنا يجلب الناس من ملل العالم المختلفة، أعم

(١) آل عمران : ٩٦ - ٩٧ .

(٢) ذكرت حول كلمة «بكة» وجوه عدة نشير هنا إلى بعضها :

أ - بكة تعني مكة، غايته أنه أبدلت ميمها بالباء ، تماماً ككلمتي «لازب» و«لازم» . انظر : مجمع البيان ١ - ٢ : ٧٩٧ .

ب - البك يعني الدك ، وحيث يتدافع الناس في أطراف الكعبة ويصطدمون ببعضهم البعض ، ويزاحم بعضهم بعضاً ، أطلق على ذلك المكان «بكة» : «لأنّ الناس يبك بعضهم بعضاً» . انظر : بحار الأنوار ٩٦ : ٧٧ .

ج - سميت بكة لأنها تخضع الجبابرة والمتكبرين وتذلهم ، وتذك الاستكبار وتحطمه ، كما قال أمير المؤمنين الإمام علي(عليه السلام) حول النسبة ما بين مكة وبكة : «مكة أكناف الحرم وبكة موضع البيت» . ثم يتحدث(عليه السلام) عن سبب تسمية ذلك المكان ببكة فيقول : «لأنها بكت رقاب الجبارين وأعناق المذنبين» . انظر : بحار الأنوار ١٠ : ١٢٧ .

د - يجيب الإمام الصادق(عليه السلام) عن سؤال حول سبب تسمية الكعبة بكّة؟ : «لبكاء الناس حولها وفيها» . بحار الأنوار ٩٦ : ٧٨ .

لكن حيث إنّ التعليل المذكور في هذه الرواية لا ينسجم مع القواعد اللغوية، حيث إن «بك» كان مضعفاً فيما كان (بكي) ناقصاً، يمكن أن يكون مراد الإمام(عليه السلام) أنّ الناس يلجؤون لعبادة الله والتضرع في كنف حضرته إلى ذلك المكان فيزدحمون عنده ، ويتسبب ذلك في تدافعهم وتصادمهم ، ومن ذلك سميت «بكة» ، ومعه فيكون منشأ التسمية بـ (بكة) هو ذلك الازدحام لا تلك الدمعات أو ذاك البكاء . هذا وقد ذكرت وجوه أخرى لتسمية هذه البقعة بـ (بكة) .



مِيقَاتُ الْحَجِّ

من الهندية والفارسية والكلدانية واليهودية والعرب، هذه الكعبة^١، إن الله تعالى يتكلم في ذلك لخليله إبراهيم عليه السلام فيقول: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^٢.

٣ - ومن الشواهد الأخرى على المطلب المذكور قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾^٣. ويتضح من ملاحظة ذيل هذه الآية: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^٤، أن الناس لم تدع إلى زيارة الكعبة بعد نزول القرآن فقط، وإنما كانت تقصدها قبل قرون سالفة من نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وآله، ذلك أن العهد الإلهي لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كان تطهير البيت لزواره والطائفين فيه والمعتكفين والراكعين الساجدين.

٤ - شاهد قرآني آخر هو قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكعبةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾^٥، فإذا كان هدف الأنبياء الإلهيين كافة إقامة العدل والقسط بين الناس، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^٦، فإن الكعبة تمثل العامل المهم والعنصر الفاعل الذي يمكنه سوق تمام الخصوصيات العرقية والجغرافية والاختلافات المكانية والتباعدات الزمانية واللغوية... سوقها جميعاً نحو جهة واحدة ومقصد فارد، وكذلك كشف

(١) الميزان ٣: ٣٥٨ - ٣٦٣.

(٢) الحج: ٢٧.

(٣) البقرة: ١٢٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المائدة: ٩٧.

(٦) الحديد: ٢٥.



الأجانب والغرباء، وتهيئة الأرضية المناسبة لقيام الناس كافة بالقسط والعدل. من هنا، يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»^١.

٥ - لا اختصاص في الثقافة القرآنية لشعب خاص أو قاطني منطقة مخصوصة في امتثال القوانين الإلهية، لا سيما منها زيارة الكعبة، فليس أبناء منطقة خاصة أليق من غيرهم في القيام بمناسك الحج، فبعد المنزل في هذا السفر المعنوي كقربه لا فرق أبداً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾^٢.

٦ - وكما كانت زيارة الكعبة في الإسلام هجرة عامة جسمانية إلى الله تعالى^٣، ضرورية في بسط العالم وإقامته، كذلك الحال في الأديان الأخرى، حيث كان الحج قانوناً رسمياً قائماً.

والشاهد على شهرة الحج: أنهم كانوا ينظمون توارينهم وأرقام سنينهم بالحج، تماماً كما حصل في قصة موسى وشعيب عليهما السلام، حيث ورد التعبير عن السنوات الثماني^٤، بـ ﴿على أن تأجرني ثماني حجج﴾^٥.

وطبقاً لما أرشدتنا إليه الشواهد المذكورة أعلاه فإن الحج يمثل أحد أبرز مظاهر الإسلام التي تتحقق فيها وتليق بها مبادئ الدوام والشمولية، من هنا

(١) وسائل الشيعة ٨ : ١٤ .

(٢) الحج : ٢٥ .

(٣) انظر : وسائل الشيعة ٨ : ٥ .

(٤) انظر : الكافي ٥ : ٤١٤ ، وبحار الأنوار ٩٦ : ٦٤ .

(٥) القصص : ٢٧ .



حصل لنبينا محمد ﷺ ما حصل من قبله لإبراهيم الخليل، ومن قبلهما
لآدم عليه السلام^(١).

من هنا، لم يكن الحج منسكاً خاصاً مميزاً لمة من الملل أو عصر من
العصور، وإنما هو حج دائم وعام، وانطلاقاً من ذلك دام وجوده محمياً بين
الأمم والشعوب المختلفة فيما مضى من سالف الأزمان مع تطاول السنون
والأيام.

(١) راجع: وسائل الشيعة ٨: ١٦٠ - ١٧١.